جدلية الحركة والسكون
في لوحة الليل في معلقة امرئ القيس

بقلم : د. عواد صالح الحياوي
كاتب سوري

ومما يلفت الانتباه في هذه المعلقة، أنّ الإطار الزماني البارز فيها هو الليل، الذي يشكل جزءاً مهماً من أجزاء الطبيعة، وتعامل الشاعر مع الليل هو جزء من تعامله مع الطبيعة، وارتباط الإنسان الجاهلي بالطبيعة ارتباط عُضوي، فهو وسط الطبيعة التي ترسم مساره وانطلاقه، والشاعر هو المعبر عن معاناة الإنسان، من خلال رصد المشاهدات الحسية، " وقد وُهب الشاعر حساً دقيقاً بوحدات الصحراء المسموعة وأصوات الفلوات وأصوات أصدائها"[1] وقد خصّه الشاعر بخمسة أبيات متتالية، يقول:

44- وليلٍ كموجِ البَحرِ مُرخٍ سُدُولَهُ عليَّ بأنـــواعِ الهُمومِ، ليبتلِي[2]

45- فقلتُ لهُ، لما تَمطَّى بصُـــــلبِه وأردفَ أعـــجازاً، وناءَ بكَلكَل

46- ألا أيُّها اللّيلُ الطّويلُ، ألا انْجَلِي بصُبحٍ، وما الإصباحُ فيكَ بأمثل

---

(1)- الطبيعة في الشعر الجاهلي، نوري القيسي، دا ر الأرشاد للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 970 ، ص236.
(2)- التبريزي، ص60-62.

47- فيا لكَ من ليلٍ، كأنّ نُجومَهُ بكُلِّ مُغارِ الفتلِ، شُدَّتْ بيذبُل! [3]

48- كأنّ الثُّريّا عُلِّقت، في مَصامِها بأمراسِ كَتّانٍ، إلى صُـــمِّ جندَل

جاءت حركة الطبيعة/الزمان حركة سلبية من جهة علاقتها بالشاعر فهو زمن مشحون بهموم شتى وامتداد طويل. وقد جمع هذا الوجه من الطبيعة من الصفات والحركات ما جعله يبدو عدواً لا يُقهر لم يملك الشاعر أمامه إلاّ الشكوى والتعبير عن الضجر والتبرم. وقد تجلى ذلك من خلال التشبيه(كموج البحر، كأنّ نجومه، كأنّ الثريا) والصفات(مُرخٍ سدوله، ليبتلي، تمطى، أردف، ناء). إنّ لوحة الليل لوحة طبيعية تمثل حالة الكآبة، والمرارة والمعاناة القاسية، التي استحال معها الشاعر كائناً مسحوب الإرادة والقوة. وملقى في غياهب الحزن والكآبة والألم والقهر بل هو ليل لا يبشر بصبح قريب ونجومه مثبتة وكأنّها شُدت بحبال من الكتان إلى صخور صلبة.

ولحركة طول الليل واستمرارها على النحو الذي جاءت عليه في المعلقة، دلالة واضحة على طول الأحزان والشدائد، وما نتج عنها من أرق لم يُعبَّر عنه تصريحاً بل عبرت عنه هذه اللوحة المتميزة التي رسمها الشاعر، "مصوراً إسراف الليل في الطول حتى ليظن أنّ نجومه(شدت بيذبل)، فهي لا تتحرك ثابتة ثبات هذا الجبل" [4].

فصورة الليل ليست صورة تسجيلية نقلية، بل هي صورة وجدانية وذاتية، نابعة من الطبيعة الموجودة داخل الشاعر، لا الطبيعة الموجودة على الحقيقة والتي يوهمنا الشاعر بوصفها، والتحدث إليها من خلال الرسالة المعلنة والتي وجهها لليل مُترجِياً ومُتعجِباً: (ألا

(3)- مغار: محكم فتله، يذبل: جبل.
(4)- الطبيعة في الشعر الجاهلي، ص241.

أيها الليل)، (فيا لك من ليل!). " فالعلة الكامنة في تعاقب الأيام والليالي في كون الوجود البشري خاضعاً في الأصل لأحكام تلك القوة القاهرة " [5].

ولعلّ ما زاد الدلالة السّلبية لحركة الليل هو غياب الأمل في نفس الشاعر، بظهور صبحٍ قريبٍ. بل إنّ هذا الصبح ليس مختلفاً في تصور الشاعر عن الليل. فكأنّ الزمن مطلقاً هو ليل متواصل. كما أنّ ليل امرئ القيس فيما مضى كان ليل هموم وأحزان، فإنّ ليالي أخرى يحيا فيها حياة أُنسٍ ومتعة وحب، كليلِهِ مع بيضة الخِدر، حين ينفض عن نفسه همومها ويرتع في ملاعب اللهو، فيحس بمتعة الليل، حين يطرح الهم والحزن جانباً، يقول: [6]

23 وبيضةِ خِدرٍ لايُرامُ خِباؤُها تمتّعتُ من لهوٍ بها غيرَ مُعجَلِ

24 تجاوزتُ أحراساً إليها ومعشَراً عليَّ حِراصاً لو يُسرُّون مقتَلي[7]

25 إذا ما الثُّرَيّا في السَّماءِ تعرَّضتْ تعرُّضَ أثناءِ الوِشاحِ المُفصَّلِ[8]

لا تصريح باسم الليل ولكّننا نشعر أنّ جوّ المغامرة يحفه ستار الليل، من خلال الأحراس والثريا في السماء وثياب النوم ولبسة المتفضل.

إذاً صور ليله هنا على أنّه مَراح الأُنس وملعب الهوى حين صبّ عليه من روحه المرحة المتفائلة، وإلا كيف يكون الليل/الظرف الزماني تارة غولاً يفترس النفوس أو جبلاً يجثم على الصدور أو بحراً متلاطماً وتارة سمراً وأُنساً ولذة ومغامراتٍ؟ وتنوع ملامح الليل وتباين صوره مرده إلى تنوع المشاعر والمواقف.

(5)- ظاهرة القلق في الشعر الجاهلي، د. أحمد الخليل، ص61.
(6)- التبريزي، ص47-48.
(7)- أحراس: حراس وأهوال، حراص: حريصون على قتله.
(8)- تعرضت: ظهرت، الوشاح المفضل: غطاء فيه جواهر وخرز.

إذاً من خلال النصوص تبين أنّ الليل لوحات مختلفة ومتنوعة، يُؤلف بينها خيط نفسي، وشعور داخلي ذاتي، مما ينتج حصيلة ذلك ليل الرهبة والحزن والخوف،" ذلك أنّ الشاعر يبصر همومه بعينيه بقدر ما يعانيها بنفسه"[9]. وليل الألفة والأُنس. كما يحضر الزمن في نهاية المعلقة في حركة تشي بالخصب الذي أعقب الدمار من جراء السيول، لينبعث زمن يحمل في طياتة النماء والحياة، كما في قوله:

81- كأنَّ مَـــــكاكِيَّ الجِواءِ غُدَ يَّةً صُبِحْنَ سُلافاً من رَحيقٍ مُفلفَلِ[10]

82- كأنَّ السِّباعَ فيه غَرقَى عَشيَّةً بأرجائِهِ القُصوَى أنابِيشُ عُنْصُلِ[11]

زمن تتلون الأرض بألوان زاهية مقابل الجدب والانفصال ليسود المكان حركة تدل على الحياة والنماء من خلال الزمن(غُديّة، عشية).

(9)- فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1980ص59

(10)- مكاكي: الطير، الجواء: الوادي، السلاف: الخمرة، مفلفل: فيه فلفل، التبريزي، ص80.

(11)- أنابيش: أصول النبات، عنصل: بصل بري.

قائمة المراجع

1. ديوان امرئ القيس، تحقيق. محمد أبو الفضل إبراهيم، ط5، دار المعارف، مصر.
2. شرح المعلقات العش رللخطيب التبريزي، تحقيق. فخر الدين قباوة، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط2عام2006.
3. الطبيعة في الشعر الجاهلي، د. نوري حمودي القيسي، دا ر الإرشاد للطباعة والنشر، بيروت، ط1سنة1970.
4. ظاهرة القلق في الشعر الجاهلي، د. أحمد الخليل، دار طلاس، دمشق، ط1، 1989.
5. فن الوصف وتطوره في الشعر العربي، إيليا الحاوي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1980.